# تزكية النفوس
# أساس بعثة الرسول الأعظم
# صلى اللّه عليه وسلم

د. هاشم عبد ياسين المشهداني

كلية الآداب/ قسم علوم القرآن

# المقدمة

## أهمية الموضوع وأسباب اختياره وخطة البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الطيبين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

في هذه الفترة الحرجة التي تمر بها البشرية؛ الفترة التي يصل فيها الفزع إلى غايته والقلق إلى اقصاه يتبدى واضحاً إلى أي مدى تخبطت البشرية حين شردت عن الله وعن منهجه للحياة:

لقد تخبطت البشرية ما بين عبادة العقل وعبادة المادة وعبادة الحتمية التأريخية والحتمية الاقتصادية والحتمية الاجتماعية... إلى آخر هذه الآلهة المزعومة التي يعبدها الناس في هذا الجيل ليهربوا بها من عبادة الله، وكانت الشقوة التي تفسد الاعصاب والنفوس، وكان العذاب الذي يمس الافراد والجماعات، وكان الفزع الدائم من الدمار الرهيب.

وليس للبشرية علاج من هذه القوة المفسدة والعذاب المفزع إلا أن تعود إلى الله، لتجد الأمن والرعاية في حماه، وتجد التوجيه الراشد في منهجه للحياة.

ومنهج النبي محمد ﷺ في تزكية النفوس هو المنهج الرباني لتقويم البشرية وتوجيهها، لترشد وتتوازن وتسلك سلوكها المستقيم في الحياة.

وهو منهج فريد في كل مناهج الأرض وأن التقى ببعضها في التفصيلات والفروع فريد في شموله ويقظته وفي أثره في داخل النفس وفي واقع الحياة وبناء الأمة.

ولقد أقمت هذا البحث على سبعة مباحث وخاتمه:

جاء المبحث الأول في بيان حالة العالم الروحية والاخلاقية والدينية قبل الإسلام.

وجاء المبحث الثاني في بيان أثر بعثة الرسول ﷺ في تزكية النفوس.

وجاء المبحث الثالث في بيان تأثير هذه التزكية في تربية الأفراد والمجتمعات.

وجاء المبحث الرابع في إيضاح الاختلاف في إطلاق الاصطلاحات على التزكية.

وجاء المبحث الخامس في بيان أهمية تزكية النفوس في إصلاح المجتمع والفرد حالياً.

وجاء المبحث السادس في بيان أساليب ووسائل لتزكية النفوس.

وجاء المبحث السابع في بيان سمات وصفات العالم الرباني الذي يتصدى لتزكية النفوس.

أما الخاتمة فقد بينت فيها أهم النتائج وأنفع المقترحات وأجدى التوصيات.

## المبحث الأول
## أحوال العالم الأخلاقية قبل الإسلام

الدارس لأوضاع العالم قبل بزوغ دعوة الإسلام ببعثة النبي محمد ﷺ يجد أن أحواله الأخلاقية قد تدنت أسفل سافلين بشيوع الخيانة والغلظة وجفاء الطبع وخشونة التعامل والظلم والعدوان والبغي والغضب وجفاف الروح وانحراف السلوك وضياع القيم وخراب الذمم وفساد الضمائر وفقدان الرحمة وانعدام الشفقة، حتى أصبحت الحياة لا تطاق لا في بلاد العرب وحدها وإنما في غيرها أفحش منها، كما يجد أن أحواله الروحية قد جفت ويبست فلا خوف من الله ولا حياء ولا رهبة منه ولا خشوع أو خضوع أو استسلام له،حتى اصبحوا كائنات كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، فقدوا الصلة بالله تعالى فلا يستشعرون رقابته ولا يرجون حسابه فاقترفوا أفحش الأفعال وأسوء الأقوال وحملوا أفسد العقائد واشركوا بالله ما لم يتنزل به سلطان فعبدوا الأحجار وقدسوا الأوثان وعددوا الآلهة وتشتت اتجاهاتهم وتبلبلت أفكارهم فتفرقت قلوبهم حتى ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، ويجد الدارس لأحوال العالم الدينية قبل الإسلام انطماس دين الفطرة ومسح ملة الانبياء وزيغ الناس عن الحق وضلالتهم عن الصراط المستقيم، حتى تصارخ المصلحون على ملتهم يحذرون الناس من هلاك وشيك ومن خطر قريب، ويبشرون بالنبي الخاتم الذي وعد الله به في الكتب السماوية المنزلة خاصة في التوراة والانجيل فلما جاءهم الرسول الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ كان المنقذ لهم من الهلاك على شفا حفرة من النار، وكان المصلح لهم من فواحش الظاهر والباطن وكان المزكي لهم من ادران الفساد الاخلاقي وكان المحيي لهم باذن الله من موات الروح وجفاف الحياة وكان الهادي لهم بإذن ربه من جور الاديان إلى عدل الإسلام.

فالبشرية تحتاج إلى حياة القلوب وتزكية النفوس واستقامة الدين، ولا يمكنها أن تستغني عن هذه الأمور أبداً، فهي أهم من الطعام للجائع وأهم من الماء للظمآن.

تلك الجاهلية القديمة الجاهلية الأولى أنقذ الإسلام الناس منها.

## المبحث الثاني
## بعثة الرسول محمد ﷺ لإتمام مكارم الأخلاق

وقد ذكر النبي ﷺ: هذا الفرض العظيم الذي كانت له البعثة بكلمة الحصر، فقال: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١).

وقد كان خبر مثال له، وأفضل أسوة فيه فقد قال القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم]. وسئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»(٢).

ولذلك دعا الله تعالى إلى اتباعه واتخاذه أسوة دائمة كاملة فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الاحزاب].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران].

ولذلك ذكر الله تعالى مقاصد البعثة المحمدية الرئيسة الأولى وفوائدها الأساسية الكبرى، في نسق واحد في أربع آيات من القرآن الحكيم، فذكر دعاء خليله إبراهيم عليه السلام وهو جد النبي ﷺ ومؤسس الملة الحنيفية وعلى يده تم بناء البيت ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

وذكرها في نسق واحد في معرض المن والتذكير بالنعم فقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[البقرة]. وذكرها بهذا الأسلوب وهو يذكر عظيم نعمته على الأمة التي بعث فيها الرسول وكبير منته عليها فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران]. وذكرها مقرونة مجموعة كذلك في سورة الجمعة وذكر العرب الذي سعدوا بهذه البعثة أولاً وظهرت فيهم أثارها الطيبة المباركة ثم لحق بهم العجم وسعد بها العالم وستبقى على العصور فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة].

## المبحث الثالث
## تأثير التزكية في تربية الفرد والمجتمع

لقد كانت هذه الحكمة والتزكية من أعظم ثمرات الصحبة النبوية ومجالسته ﷺ وعشرته، فنشأ في أحضانه جيل تحلى بأفضل الاخلاق واكرم الصفات وتجرد عن رذائل الاخلاق ومهلكات العادات وذمائم الصفات وغوائل النفوس وبقايا الجاهلية ومغالطات الشيطان وقد شهد القرآن الكريم باستقامة قلوبهم وصلاح نفوسهم ووصولهم إلى ذروة تهذيب الأخلاق وتزكية النفوس، فقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجرات].

وشهد لهم رسول الله بقوله: «**خير الناس قرني**» وفي رواية: «**خير أمتي قرني**»[٣] وشهد لهم أحد رفاقهم وهو عبد الله بن مسعود ﷺ بقوله البليغ الوجيز: «أبر الناس قلوباً واعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً». وشهد لهم أحد أعداؤهم– وهو أمير رومي وصف المسلمين أمام هرقل فقال: «هم فرسان بالنهار رهبان في الليل لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه»[٤].

وقال آخر: «أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم»[٥]. ولقد زخر تأريخ الإسلام وتأريخ الإنسانية بأخبار مكارم أخلاقهم وفضائل أعمالهم وحكاياتهم الجميلة في حسن السيرة وكرم

الأخلاق وشدة الخوف من الله والزهد في الدنيا وإيثار الآخرة على العاجلة وإيثار من سواهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وأداء الأمانات إلى أهلها، والشهادة بالحق ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين والانصاف من النفس والانتصار للحق والغضب لله ولرسوله والحب في الله والبغض في الله والرحمة على الخلق والضعفاء وحسن المواساة وشدة المساواة والتزام الحق والعدل في كل أمر، والتوسط والاقتصاد في كل شيء إلى غير ذلك من الاخلاق النبيلة. والفضل في كل ذلك يرجع إلى التعليم النبوي والتزكية التي نوه بها القرآن والتزم ذكرها في مقاصد البعثة وفوائدها، فلم يكن الصحابة ﷺ إلا زرع الإسلام وغرس النبوة وصنائع التربية النبوية والتزكية المحمدية(٦).

## المبحث الرابع
## مصطلحات في التزكية

نجد أحياناً أن المصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للمسميات جناية على الحقائق. وفي كل ادب وفن تنشأ عنه الشبهات وتشتد حوله الخصومات وتتكون فيه المذاهب، فلو عدلنا عن هذه المصطلحات المحدثة وعن هذه الأسماء المعرفية ورجعنا إلى سيرة السلف ونصوص القرآن والسنة لا نحلت العقدة وهان الخطب واصطلح الناس.

ومن هذه المصطلحات والأسماء المعرفية التي شاعت بين الناس بعد استحداثه هو مصطلح (التصوف)، الذي لم يعرف إلا في القرن الثاني الهجري(٧).

في حين نجد أن ألفاظاً قرآنية وحديثية وصحابية وتابعية تعارف عليها السلف الصالح أولى بإشاعته واستخدامه في احاديثنا وبحوثنا: منها (التزكية) التي اعتبرها القرآن اساس بعثة النبي ﷺ وهي سبيل فلاح الإنسان: قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس].

وورد أيضاً لفظ (الأحسان) في الحديث النبوي ومعناه: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٨) وورد أيضاً لفظ (الزهد) في السنة النبوية، كما استعمل علماء التربية والسلوك مقابل (فقه الظاهر) للاحكام العملية، استخدموا (فقه الباطن) دلالة على تزكية النفوس وبلوغ الزهد واستشعار درجة الإحسان، لذلك كان الاجدر بنا أن نسمي العلم

الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الاحسان والتخلق بالاخلاق النبوية، واتباع الرسول ﷺ وكيفياته الإيمانية كان الاجدر بنا وبالمسلمين أن يسموه (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن) والحوا على الغاية دون الوسائل، ولو فعلوا ذلك لا نحسم الخلاف وزال الشقاق، فالتزكية والاحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة يقربها المسلمون جميعاً[٩].

## المبحث الخامس
## أهمية تزكية النفوس في إصلاح المجتمعات والافراد حالياً

والآن وقد شاعت الأزمة الروحية والأخلاقية في العالم أجمع وحتى في أقطارنا الإسلامية وضعفت الدعوة إلى الله وندرت فيها الربانية وتزكية النفوس من زمان، وندر فيها وجود الدعاة إلى الله وتجديد الصلة بالله وإصلاح الباطن، بنفوذ الحضارة الغربية أو للقرب من مركزها أو بفضل عوامل اخرى، حتى أننا لنشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحر في العلم ولا التعمق في التفكير ولا فضل من ذكاء ولا غني من أدب ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنة ولا نعمة من استقلال، إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حل لها، فالغالبية فريسة المادية الرعناء ونهاية المال العمياء والامراض الاجتماعية والخلقية. والمثقفون– الثقافة الدينية أو المدنية– فريسة الحرص على الجاه و المنصب والأمراض الباطنية من حسد ورياء وكبر وإنانية، وحب الظهور ونفاق ومداهنة، وخضوع للمادة والقوة والحركات الاجتماعية والسياسية تفسدها الاغراض وعدم تربية النفوس وضعف القادة.

والمؤسسات يفسدها الخلاف والشقاق وقلة الشعور بالمسؤولية والتفكير الزائد في المادة وزيادة الاموال، والعلماء يضعف سلطانهم اهتمامهم الزائد بالمظاهر وخوفهم الزائد من الفقر وسخط الخاصة والعامة، واعتيادهم الزائد للحياة الرخية الناعمة، ولا علاج لكل ذلك إلا في (التزكية النبوية) التي نطق بها القرآن الكريم وبعث لها الرسول ﷺ وفي الربانية التي

طولب بها العلماء قال الاستاذ سعيد حوى: «لابد أن تعاد إلى الأذهان الصورة الصحيحة للأخلاق الأساسية في الإسلام التي إذا فقد المسلم خلقاً منها كان على شفا هلكة، وإن نعطي لكل خلق من هذه الاخلاق مدلوله الصحيح ومضمونه الواسع المستمد إلى الكتاب والسنة وألا تسنى تبيان الطريق الذي يتحقق به المسلم بهذه الاخلاق، والأمل بفضل الله كبير أن تعود الأخلاق الإسلامية إلى الظهور مرة ثانية ليحيا الإسلام بها من جديد، ولتحيا بعد ذلك الأرض بالإسلام من جديد وتتطهر»(١٠).

فبالاطلاع على تدني أخلاق الأفراد والمجتمعات حالياً يدلنا على أهمية تزكية النفوس.

## المبحث السادس
## أساليب ووسائل تزكية النفوس

من الواجب أن نقرر هنا أن تحقيق هذا المنهاج ليس بالسهولة التي تبدو على الورق، فنحن محاطون بزينة الدنيا ومغرياتها من المال والنساء والجاه والأبناء غيرها، كل هذه فتن تتضافر على أثارة القلب وجذب خطامه إلى محيطها المعربد الصاخب، وليس في ميسور المرء أن ينجو من سحر فتنة واحدة منها، فكيف بهن مجتمعات؟

وما دمنا ننظر إلى حقائق الأشياء وواقع الأمور كما يعلمنا رسول الله ﷺ فيجب أن تكون عمليين واقعيين أيضاً في محاولة علاجها بأساليب ووسائل منها:

**أولاً- تدارك الخطا بالزهد:**

الزهد هو الفاصل الحكيم الذي يقيم المرء بين حياتيه على صراط مستقيم وهذا عند أهل المعرفة: قيل للزهري: ما الزهد؟ قال: إما أنه ليس تشعث اللمة ولا قشف الهيئة ولكنه صرف النفس عن الشهوة(١١)، وسئل الإمام أحمد بن حنبل: هل يكون المرء زاهداً ومعه ألف دينار؟ قال: نعم، قيل: وما آية ذلك؟ قال: آيته أنه إذا ازدادت لا يفرح، وإذا نقصت لا يحزن.

وقال ابن السماك: الزهد هو الذي إذا أصاب الدنيا لم يفرح وإذا أصابته لم يحزن، يضحك في الملا ويبكي في الخلا. وسئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الزهد فقال: «إما أنه ما

هو بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا: أن تكون بما في يد الله أغنى منك بما في يدك».

والزهد ما رسمه الله في القرآن الكريم ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة القصص].

## ثانياً- تجريد القلب من الباطل:

وهو تجريد القلب من كل هوى يعارض المثل العليا، هذه الاهواء هي مجموعة الخواطر والشهوات التي لا يمكن أن تورد على القلب حركة ربانية أو نغمة سماوية نورانية، لأنه ليس من طبيعتها فهي شهوات الجوارح الحيوانية في الإنسان وهي جوارح أرضية، ولذا فالتجرد هو الرجوع إلى الفطرة، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات].

## ثالثا- تعاهد القرآن الكريم بكثرة تلاوته:

فهو كلام الله عز وجل، وهو جلاء البصائر الكليلة وشفاء الصدور العليلة فاذا الزم قراءته في تمهل وترو انفتحت إغلاق القلب وسطعت انوار القرآن وبشاشته في آفاق النفس، وإلى هذا يدعونا الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[محمد]، وقد روى أبو سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أعطوا أعينكم حظها من العبادة** فقالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال **النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار عند عجائبه**». ويقول عليه الصلاة والسلام: «**أن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل: وما جلاؤها؟ قال تلاوة القرآن وذكر الموت**».

## رابعاً- مصاحبة الرسول صلى الله عليه وسلم في سيرته المطهرة:

نصاحبه عليه الصلاة والسلام مصاحبة وجدانية عميقة هذه المصاحبة الكريمة فإنها تدخلنا في محيطه النبوي الكريم، فتلين قلوبنا بتيارات روحه ﷺ وتصفو طباعنا وتتهذب غرائزنا ويستبين لنا النهج الصالح والغاية العليا من الحياة[١٢]، وبهذا نزكي نفوسنا ونقوم أخلاقنا ونصلح أحوالنا.

## خامساً- الذكر على كل حال:

فذكر الله عز وجل للقلوب كالهواء للأبدان، قال الإمام ابن تيمية: «ذكر الله للإنسان كالماء للسمك، فانظر كيف يعيش السمك بعيداً عن الماء». هذا قول أهل الحقائق لا أهل المجاز والخيال وقد أوصى رسول الله ﷺ صاحبه معاذاً «**لا يزال فوك رطباً بذكر الله عز وجل**» وكان ﷺ يذكر الله على كل حال. وخير صيغ الذكر ما أثر عن رسول الله ﷺ لأن قلبه خير القلوب الذاكرة وهو أصدق الذاكرين.

## سادساً- مخالطة الأخيار والصالحين:

وهم أهل المعرفة بالله، ومن علامتهم الاشتغال بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس، والتزام أمر الشرع ونهيه في صدق وطاعة والقيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوة وإيمان فصحبتهم تلين القلوب وتطهر من الذنوب.

**سابعاً- التقرب إلى الله تعالى بالنوافل:**

فتزكية النفس بأداء أنواع العبادة والقربات من صلاة وصيام وصدقة وفي الحديث القدسي المشهور: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به... إلخ**» ولاسيما ما كانت في جوف الليل(١٣).

# المبحث السابع
# صفات العالم الرباني والمربي المرشد

وهو الداعية الصادق الذي أصبح مرشداً لكونه مربياً قد أخلص لربه فكان ربانياً كما أراد الله تعالى بقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران]، وهذه الربانية نتيجة للعلم الشرعي والعمل بهن وسماهم الله تعالى بالربيين أيضاً فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[آل عمران].

**فمن أهم سمات وصفات المربي المرشد ما يأتي:**

**الأولى:** سمة الروحانية التي يتصف بها الداعية الرباني فإذا خلت أقواله وأعماله منها فلا بركة فيها، لأنه الطبيب الإيماني الذي يعالج أمراض القلوب وآفاتها، كالفتور والإسراف، والاستعجال، والعزلة والتفرد والإعجاب بالنفس والغرور والتكبر، فيعرف أسبابها وأثارها، فيمسها بنور الإيمان وتشفى بإذن الله ويسلك منهجاً معتدلاً ناجحاً في تربية الروح وتربية العقل وتربية الجسم(١٤).

**الثانية:** سمة المجاهدة والتجربة ما جرى بها مرارة الحرمان ومشقة المجاهدة والصبر على تنفيذ أمر الله ونهيه وطبق مفردات المنهج الإلهي على نفسه، فلا يتكلم إلا بالحق المجرب ويسلك في تربية تلامذته ما يناسبهم من طرق: بالتربية بالقدوة والتربية بالموعظة والتربية بالعقوبة والتربية بالقصة والتربية بالعادة وبتفريغ الطاقة وبملء الفراغ والتربية بالاحداث(١٥).

**الثالثة:** صفة القيادة، فالمربى قائد، والقائد إذا لم يعد بقوة روحه وهيمنة نفسه فهو قائد ضعيف التأثير ولن يغنيه في جمع القلوب من حوله إلا بكيانه المعنوي وإنسانه الباطني الذي يترعرع في رياض هذه الروح الإيمانية.

**الرابعة:** سمته العلمية والمعرفية، تمده بزاد من العلم الفطري، ونور من المعرفة يتبين به حقائق الحياة ويصحح له خطأه في فهمها والنظر إليها، ويهتدي على ضوئه إلى الصواب في معضلات الأمور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة النور]. فالعالم الرباني يصحح الأفكار الفاسدة والآراء الخاطئة ويجلو وجوه الحق فيها.

**الخامسة:** سمته التفضيلية والنورانية، يلين بها قلب المربي، فيصير يقظ القلب مرهف الحس، ينتفض بتيارات الروح بالقرآن فيستخرج من دقائق اشاراته وخفي عباراته ما لا يلفت إليه غيره، وهذا ضروري جداً للمربي الذي يجعل القرآن الكريم أهم موارده وامداده، فاليقظة والنورانية عدة لازمة للمرشد.

**السادسة:** سمة التجدد والإنشاء والطموح، فهو الذي يجدد ما تداعى من كيان أمته الاجتماعي والاقتصادي والدولي، وهو الذي ينشئ كيان أمته على نحو ما فعل رسول الله ﷺ، وطموحه يبعث بهمته إلى غاية أبعد وأسمى.

**السابعة:** السمو بفضائله النفسية وقواه العاطفية إلى ذروة رفيعة من الفضل فهو شجاع غاية الشجاعة، قوي بالله غاية القوة، غني بما تجد في قلبه من رزق الله، واثق بنفسه وربه كل الثقة، وذلك من الزم الصفات للمربي الأصيل، كما أنه عالي العاطفة رباني النفس، تتسع نظرته لاتباعه ومخالفيه وتشمل الناس جميعاً بحبها غير أن حبه لاتباعه يتخذ سمة المودة والبشاشة، وحبه لمخالفيه يتخذ سمة الرثاء والاشفاق، فالهدى الذي ينشده لهؤلاء وهؤلاء هو الحرص على إسعادهم وعلاجهم بمختلف الوسائل(١٦).

وإن خير ما اتصف بهذه السمات بعد النبي الكريم ﷺ وصحبه الميامين ﷺ علماء الأمة وسالكو طريق التزكية والزهد والإحسان كعبد الله بن المبارك والجنيد البغدادي ومعروف الكرخي وعبد القادر الكيلاني رحمهم الله تعالى وقدس أسرارهم.

# الخاتمة

## أهم النتائج وأجدى المقترحات والتوصيات

وبعد هذا الاستعراض لمعنى (تزكية النفوس) وحاجة العالم إليه أفراداً وجماعات وأثر بعثة الرسول محمد ﷺ في تزكية النفس، وتوصلنا إلى جملة **نتائج أهمها:**

**أولاً:** أن صلاح البشرية لا يكون إلا بتزكية النفوس لتحيا حياة طيبة تليق بمقام الإنسان وتدفعه إلى دوره الذي خلفه الله من أجله في الحياة.

**ثانياً:** أن الغاية العظمى والهدف الأساس في بعثة الرسول محمد ﷺ هو تزكية النفوس، لانقاذ الإنسان من الجاهلية المقيتة.

**ثالثاً:** يجب أن لا يكون المصطلحات والاسماء سبباً للخلاف والشقاق بين المربين والمصلحين والدعاة الربانيين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

**رابعاً:** ذكرت جملة من أنجح الأساليب والوسائل في تحقيق تزكية النفوس بالزهد وفهم القرآن وإدامة الذكر ومتابعة السنة ومجالسة الصالحين والتقرب بالنوافل.

**خامساً:** واتضح أن للمربي سمات بها: وهي الروحانية الفعالة لا الانعزالية والمجاهدة والتجربة، والقيادة الراشدة، والعلمية والمعرفة، واليقظة والنورانية، والتجدد والطموح، والسمو والسر والقوة.

وأرى هنا أن انفع المقترحات لتحقيق تزكية النفوس التي نسعى إليها:

**أولاً:** الدراسة للعلوم الإسلامية ينبغي أن تقوم على استنباط القيم التي جاءت بها الرسالة الإسلامية لا لمعرفتها والتحدث بها فقط وإنما للعمل بموجبها وتطبيقها.

**ثانياً:** أعداد الكوادر التدريسية للعلوم الشرعية، الذين تنطبق عليهم شروط المرشد وصفات العالم الرباني وسمات الداعية المربي.

**ثالثاً:** متابعة الأبناء منذ نعومة أظافرهم وتعويدهم التزكية وتدريبهم عليها والأخذ بأيديهم نحو الصلاح والإصلاح اللذين جاء بها الإسلام كما أن هناك أجدى التوصيات أرجو الأخذ بها:

١. استحداث مادة (الأخلاق الإسلامية) لتدريسها في مراحل الدراسة المختلفة وهي تحوي الأمثلة الواقعية للتطبيق الحياتي اليومي.

٢. استبعاد كل ما يسيء إلى القيم الأخلاقية في وسائل الإعلام والتعليم والتوجيه أو الترفيه والأدب والفن والرياضة.

٣. التحصن من الغزو الفكري والأخلاقي الغريب عنا المخالف لمبادئنا، واخيراً: أسأله تعالى أن يأخذ بأيدينا لما فيه خير أمتنا وصلاحنا، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## الهوامش

(١) رواه مالك في الموطا، وفي مسند أحمد بلفظ (صالح الأخلاق).

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

(٣) رواهما البخاري في صحيحه.

(٤) ليراجع البداية والنهاية لابن كثير ٥٢/٧.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) انظر: تقديم ابي الحسن الندوي لتهذيب الأخلاق لعبد الحي الحسني ص٨.

(٧) كشف الظنون ٢٨٠/١، نقلاً عن الإمام القشيري.

(٨) حديث متفق عليه.

(٩) ليراجع: كتاب ربانية لا رهبانية لأبي الحسن الندوي ص١٢.

(١٠) كتاب: حبذ الله ثقافة وأخلاقاً لسعيد حوى ص١٦٨.

(١١) الروحانية الاجتماعية في الإسلام، إصدار المركز الإسلامي بسويسرا ص١٠٠.

(١٢) ينظر الروحانية الاجتماعية في الإسلام ص ٥٣-٥٤- ٥٥، وجند الله لسعيد حوى ٢٢٦.

(١٣) مختصر منهاج القاصرين لابن قدامة القدسي ص١٤، والروحانية الاجتماعية في الإسلام ٤٦-٥٥، وإحياء علوم الدين ٤٩/١، وآداب العشرة لأبي البركات العزي ١٣.

(١٤) آفات على الطريق د.السيد محمد نوح ص٥ فما بعدها ومختصر منهاج القاصرين ١٥٤.

(١٥) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١/ ص١٨ وما بعدها.

(١٦) ليراجع: أحياء علوم الدين للغزالي ٥٥/١، وما تلتها وآداب العشرة للغزي ص٢٤، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي ص١٦ وبعدها.

## المصادر

**القرآن الكريم**

١. أحياء علوم الدين- للأمام الغزالي (ت٥٠٥هـ)، ط عيسى البابي بمصر.
٢. آداب العشرة وذكر الصحبة والأخوة- لأبي البركات بدر الدين محمد الغزي (٩٨٤هـ)، ط دار التربية- بغداد.
٣. آفات على الطريق- د.السير محمد نوح.
٤. البداية والنهاية- الحافظ ابن كثير.
٥. تهذيب الأخلاق- للعلامة عبد الحي الحسني- ط دار الاعتصام- القاهرة ١٩٧٨م.
٦. جند الله ثقافة وأخلاقاً لسعيد حوى ط٢ القاهرة.
٧. ربانية لا رهبانية- لأبي الحسن الندوي، ط٢، نشر دار الفتح- بيروت ١٩٦٦م.
٨. الروحانية الاجتماعية في الإسلام- إصدار المركز الإسلامي في سويسرا ١٩٦٥.
٩. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون- حاجي خليفة (١٠٦٧هـ)، ط١، دار الفكر- بيروت ١٩٨٢م.
١٠. مختصر منهاج القاصدين- لابن قدامة المقدسي (ت٧٤٢هـ)، المكتب الإسلامي- دمشق ١٩٦٩م.
١١. منهج التربية الإسلامية- لمحمد قطب، ط١، دار الكتاب الإسلام- القاهرة.
١٢. صحيح البخاري- للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ).
١٣. صحيح مسلم- للإمام بن الحجاج النيسابوري (٢٦١هـ).
١٤. أعلام الموقعين عن رب العالمين- لابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، ط دار الجيل- بيروت.
١٥. الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير- للسيوطي (٩١١هـ)، ط العالي الحلبي.

١٦. جامع الترمذي- لمحمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، ط دار الكتب العملية- بيروت.
١٧. شعب الإيمان- لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ).
١٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، ط دار المعارف بمصر.
١٩. الموطأ- للأمام مالك بن أنس (١٧٩هـ)، ط دار الشعب- بالقاهرة.